

أنا وعالمنا

﴿ امالى دينية - الدرس السادس عشر ﴾

م (٤٦) طول العمر : هذه المسئلة من فروع عقيدة القضاء والقدر والنظر فيها من حيث الاسباب واتصال المسببات بها لا اشكال فيه لانه مبني على الظواهر وللانسان عمر طبيعي هو مستعد لأن يبلغه اذا لم تقارضه اسباب اخرى تحول دون ذلك كالقتل والفرق وكالأمراض التي تفضي الى سرعة الانحلال وانطفاء سراج الحياة او ينقطع عنه مدد النمو الذي تقوم به الحياة حتى تبلغ الأجل المستعدة لبلوغه في اصل نظام الفطرة . ومثل الانسان في هذا سائر الاجسام الحية حتى النبات فان القطن مثلاً له اجل محدود في الطبيعة ولكنه لا يبلغه اذا حالت دون ذلك الاسباب المعارضة كأن يقلع بعد نباته بشهر او شهرين او يمنع عنه السقي الذي يفديه ويمدّه حتى يبلغ اجله . فاذا عدا عاد على حرث قوم فاقتلع بعض هذا القطن يصح ان تقول انه لو لم يقلعه لبقى حياً الى ان يثمر كما يصح ان تقول ان ذلك الشاب لو لم يغرق لماش مدة طويلة لأن بنته مستعدة لذلك وكذلك لو لم يتعرض للمرض الفلاني الذي اصابه بالعدوى لكان جديراً بأن يطول عمره ويعيش عيشة راضية . كل هذا يصح ان يقال بالاعتبار الذي ذكرناه وهو ما ثبت عقلاً ووجوداً وشرعاً بالوجه العام المثبت لارتباط الاسباب بالمسيبات .

ثم انهم يطلقون لفظ (الأجل) ولفظ (العمر) على المدة التي يعيشها

الانسان وغيره بالواقع ونفس الأمر لا على المدة التي هو مستعد لبوعها عند انتفاء الموانع والأجل بهذا المعنى لا يعرف الا بالوقوع فمتى مات المرء يعلم ان هذه المدة التي قضاها هي اجله في الواقع ونفس الأمر ولما كان الله وحده هو الذي يعلم ما سيعرض على الأحياء من الفواجع الفجائية . والتهاون بالتدابير الصحية . فيقطع آجالهم الطبيعية الاستعدادية . أطلق الأجل على علم الله تعالى بالمرء وبهذا المعنى قالوا ان العمر لا يزيد ولا ينقص وهو صحيح اذ لو وقع في الوجود خلاف ما يعلم الله تعالى انه سيقع لكان العلم جهلاً وقد فرضناه علماً وبرهاناً عليه

الدين دين الفطرة والشريعة حنيفة سمحة ليها كنهانها لا شبهة فيها ولا حيرة ولكن انتشار الجهالة في المسلمين بعد السلف قدفهم في تهور الحيرة وطوح بهم في مهاوى المشكلات . واعظم بلاء حل بهم من قبل دينهم عدم فهم القضاء والقدر على وجه المقول الذي شرحناه حيث خرجوا به الى الجبر وانكار اثر الاسباب في المسببات حتى صار من يطلب الشيء من سببه ويرى انه يوجد بوجوده وينتفي بانتفائه يعد من فاسدي الاعتقاد كأن الانسان عندهم لا يكون مسلماً صحيح الاعتقاد حتى يمتلخ عقله ويتزعزع وجدانه ويكابر حسه وينكر الوجود نفسه وكأن المسلم خلق لأن يجهل كل شيء ويترك كل سعي وكسب ويبسط يديه الى القضاء والقدر لتفيض عليه الارزاق والبركات والخيرات بابطال نظام الكون وتبديل سنن الخليقة ونواميس الطبيعة التي لا تتبدل ولا تتحول . اذا قال الطيب : ان مداراة الصحة على الوجه الفلاني سبب في طول العمر او يطيل العمر يقول الجاهلون قد كفر . واذا صدقه المؤرخ الاحصائي

فذكر عدة بلاد وممالك قلت فيها الوفيات منذ انتشرت فيها المعارف الطبية
وصار تعليم فن حفظ الصحة (الهيجين) عاماً في ذكرانها وانها يقولون قد
كذب واختلق . أفلا يرون كيف يفتك الطاعون في الهند كما كان يفتك
ياوروبا في العصور الغابرة وكذلك الهيمضة المعروفة بالهواء الاصفر سالت
العرب ولم تزل عدوة فناكة في الشرق . اذا اوردت مثل هذا يترضك
المتحدثون الشاكرون المشككون بذكر شواذ لا يعرفون ان لسذوذها
اسباباً وقف عليها الطيب ونحوه واذا لم يقف على بعضها يتلمسه حتى يجده
كما وقع للاطباء وغيرهم من علماء الكون في مسائل لا تحصى
اذا قال الطيب ان كذا يطيل في العمر او يقصر فهو لا يعنى بالعمر
ما قدر الله في سابق علمه لان وظيفته ليس من موضوعها انكشاف
المعلومات لله تعالى او عدم انكشافها - على فرض جواز ذلك - وانما
موضوعه بدن الانسان من حيث يمرض ويصح وما يكون من اثر ذلك
في طول البقاء وعدمه واستمداده من التجارب التي تنكشف بها سنن الله
في الخلق وتعرف بها الاسباب التي اناط الله تعالى بها الحوادث وجوداً
وعدماً فهو بهذا اعلم منهم بقضاء الله وتقديره لوقوفه على سننه في هذا التقدير
كيف ينكر مسلم ان شيئاً من الاشياء . يكون سبباً في بسطة الاجل
وطول البقاء . وهو امر ثابت في الفطرة ودينه دين الفطرة وثابت في
العقل ودينه مبني على العقل وثابت بالنقل ايضاً . روى البخاري ومسلم من
حديث انس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من
احب ان يبسط له في رزقه وينسأ له في آثره (اي يؤخر له في اجله)
فليصل رحمه » وروى ابن ماجه من حديث ثوبان رضي الله عنه قال قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يرد القدر الا الدعاء ولا يزيد في العمر الا البر وان الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » والاختلاف في هذا المعنى كثيرة والبحث في زيادة الرزق كالبحت في طول العمر سواء لان لكل منها اسباباً وعلماً الكون انما يتكلمون باعتبار الاسباب واما بالنسبة لما في علم الله تعالى فليس من موضوعهم ولا غيرهم لان ما في علم الله انما يعرفه الناس بوقوعه الا ماله سنن مطردة لا تنازعها سنن اخرى كبير الكواكب فاننا نعلم ان الشمس تقرب بعد كذا ساعة وتكسف في يوم كذا ومتى يتبدى الكسوف ومتى ينتهى . ولما تصدى المسامون لادخال الدين في كل بحث وخلطوا الكلام في الاسباب الظاهرة بالكلام في العقائد جعلوا لهذه المسئلة مخرجاً سموه (القضاء المعلق) يعنون ان المسببات معلقة في علم الله تعالى باسبابها فاذا وقعت الاسباب وقعت معها المسببات لا محالة والا فلا وهو قول صحيح ولا فرق فيه بين السبب الذي علم بالاختبار والوجود والسبب الذي علم بالشرع بل الاول اقوى لان الثاني يحتمل التأويل فيما اذا لم يكن نصاً قطعياً والله اعلم